﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ [الحجر: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّنبيهُ على فائدة المحاورة لمعرفة أغراضِ إبليس وبيانِ ما أعدَّ الله لعبادِه المخلصين

لمّا قال إبليس مقولتَه؛ كان كأنَّه قيل: فبماذا أُجيبَ؟ فقيل: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾[1]؛ استدراكًا لإصغاء المخاطَبين، وتنبيهًا على فائدة هذه المحاورة من معرفةِ أغراضِ إبليس وبيانِ ما أعدَّ الله لعبادِه المخلصين الذين لا يسلكون طريق الغواية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطٌ﴾: أصلُ الصراطِ: الطَّريقُ الواضِحُ المُستَقيمُ، الذي يمُرُّ فيه الشيءُ بيسر وسهولة، وسُمِّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بسُرعَةٍ لِكونِهِ واسِعًا مُستقيمًا، والجَمْعُ: صُرُطٌ، أو مِنْ سَرِطتُ الشَّيْءَ: إذا ابتلعْتَه؛ لأنَّه - أي: الطَّريق - يَبْتَلِعُ المارَّةَ لِكَثْرَةِ سُلوكِهِم[2]. والمقصود بالصِّراط في الآية: الطَّريقُ البَيِّنُ، مُستَعارٌ لِلْعَمَلِ الَّذي يَقْصِدُ مِنْهُ عامِلُه فائِدَةً[3].

المَعْنى الإجماليُّ:

اللهُ ﷻ هو الحقُّ، وصِراطُه حقٌّ، ودينُه حقٌّ

قال الله تعالى: طريقُ الحَقِّ والهُدى والإخلاصِ طريقٌ مُعتَدِلٌ، لا اعوجاجَ فيه، يدُلُّ عليَّ، ويوصِلُ إليَّ، وإلى جنَّتي، أو المعنى: هذا طريقٌ، حقٌّ عَلَيَّ أن أراعيَه، وهو ألّا يكونَ لك سلطانٌ على عبادي، إلّا مَنِ اختارَ اتِّباعَك منهم لِغَوايتِه[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/60.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط، صرط)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرط).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/606، 607، والزمخشري، الكشاف: 2/579، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستعارة في قولِه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾:

عهدُ الله ثابتٌ لا تغيِّرُه الأحوالُ والأزمنةُ والأمكنةُ

يؤتى بمثل هذا الخبرِ للتَّمثيلِ بالتعهُّد لأمرٍ ما، بأنَّ صاحبَه يتوكَّل به، وهو قادرٌ عليه؛ لقوَّة سلطانِه وعِظَم شأنِه، وأنَّ التعهُّد به ثابتٌ، لا تغيِّرُه الأحوالُ ولا الأزمنةُ ولا الأمكنةُ؛ ليكون حرف الجرِّ (عَلَى) على معنى الوجوبِ المجازيِّ؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى لا يتخلَّفُ عن الإيفاء به، ولا يحيدُ عنه، وتقدير التَّمثيل: هذا طريق في ثبوتِه وعدم تخلُّفِه بمقتضى وعدي مثل حق واجب عَلَيَّ أن أراعيه، وهو ألّا يكون لك سلطان على عبادي، إلّا من اختار اتِّباعك منهم لغوايته، وفائدة مجيء الخبر على طريق الاستعارة التَّمثيليَّة المبالغة في إثباتِ أنَّ عباده ﷻ ليس لإبليس عليهم سلطانٌ في التَّأثيرِ عليهم[1].

مرجع اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

الإخلاصُ طريقٌ مستقيمٌ

على ما تقدَّم في تنوُّع التَّوجيه فالْإِشارَةُ تعودُ إِلَى ما يُؤْخَذُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْواقِعَةِ بَعْدَ اسْمِ الْإِشارَةِ الْمُبَيِّنَةِ لِلْإِخْبارِ عَنِ اسْمِ الْإِشارَةِ، وَهِيَ جُمْلَةُ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، ويحتمل أن تعود الإشارةُ إلى مضمونِ الاستثناء، وهو تخليص المخلصين من تأثير إغوائه، وهو على قراءة ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللّام، أو إلى الإخلاصِ على قراءة ﴿ٱلۡمُخۡلِصِينَ﴾ بكسر اللّام، على معنى: أنَّه طريقٌ يؤدي إلى الوصول إليَّ من غير اعوجاج ولا ضلالٍ[2]، ويحتمل أن يكون الخبرُ على معنى التَّهديد والوعيد لإبليسَ ومن يتبعه، ويكون ﴿عَلَيَّ﴾ بمعنى (إليَّ)، كالرَّجلِ يَقول لغيره: طريقك عَليَّ، ومسيرك إليَّ، أي: لا تفلتُ مني، والمعنى: هذا صراط إليَّ مرجعُه، فأجازي كلًّا بأعمالِهم، وإيثارُ حرفِ الاستعلاءِ على أداة الانتهاءِ (إلى) لتأكيد

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/160، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/52.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/606، والزمخشري، الكشاف: 2/579، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

المرجعِ إليه تعالى، وتحقُّق الوعدِ، بمعنى ثبوته وتمكُّنه، كتمكُّن الاستعلاء، فهو على وجهٍ تمثيليٍّ من غير أن يكون هناك استعلاءٌ لشيءٍ عليه ﷻ، فيكون حرف الاستعلاء على طريق المجاز، لبيان المعنى بطريق الدَّعوى والدَّليل[1].

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

تنزيل غيرِ المشاهدِ منزلةَ المشاهد لوضوحِه وبيانِه

عُبِّرَ بـ﴿هَٰذَا﴾ الذي أُشيرَ به إلَى غَيْرِ مُشاهَدٍ تَنْزِيلًا لَهُ مَنْزِلَةَ الْمُشاهَدِ، وَتَنْزِيلًا لِلْمَسْموعِ مَنْزِلَةَ الْمَرْئِيِّ، ولمّا كان ما يعودُ إليه اسم الإشارة في الظّاهر، هو جملة: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ التي جاءت في اللفظ بعدَه؛ أفادَ الكلامُ قَصْدَ التَّشْوِيقِ إلَى سَماعِ ما يعود إليه اسم الإشارة عِنْدَ ذِكْرِه، فاسْمُ الْإشارَةِ هُنا بِمَنْزِلَةِ ضَمِيرِ الشَّأْنِ في عودِه على ما بعدَه[2]، لتعظيم شأنِ المذكورِ بعدَه، وللتَّنبيه على أهميَّة الإصغاء إليه، والعملِ بما يقتضيه، وإن عاد اسم الإشارة إلى مضمونِ جملة الاستثناء أو إلى الإخلاص المفهوم من الاستثناء، فيكون عائدًا إلى غيرِ مرئيٍّ كذلك لتنزيلِه منزلة المرئي لوضوحِه وبيانِه.

نكتة التعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

سهولةُ تحصيل الإخلاص لله تعالى إذا صدقت النِّيَّةُ

عُبِّرَ بصيغة اسم الإشارة للقريب لوضوحِ طريق استقامة عباد اللّه المخلَصين ووضوحِ الإخلاص، وللإشعارِ بقربِ تناولِهما وتحصيلِهما.

بلاغة الاستعارة في كلمة ﴿صِرَٰطٌ﴾:

الحثُّ على التزامِ الصراط المستقيم الموصل إلى رضا الله ومحبَّتِه

شُبِّهت سنَّة اللّه التي وضعها للنّاس، وهي: أنَّ عباده ليس لإبليس عليهم سلطانٌ، وأنَّه لا يغوي إلّا من اتَّبعَه، أو هي: أنَّ إبليس لا يستطعُ إغواءَ من أخلصَهم اللّه تعالى له، أو هي: أنَّه لا يستطيع التأثيرَ على من يخلصُ للّه تعالى بالطريق المستقيم، بمعنى دوام الحالةِ

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/606، والسمعاني، تفسير السمعاني: 3/140، وابن جرير، جامع البيان: 17/103، والبغوي، معالم التنزيل: 3/58، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79، والشهاب، عناية القاضي: 5/518.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.

وثباتِها، فحُذِفَ المُشَبَّه، وأقيم المشبَّه به مقامَه على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة، والقصدُ الحثُّ على التزامِ هذا الصراط الموصلِ إلى رضا اللّه ومحبَّتِه[1].

فائدة مجيء الصِّفة في قولِه: ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾:

مِن ينحرفْ عن الصِّراط المستقيم؛ يتسلَّطْ عليه إبليسُ لإغوائِه

لمّا كان لفظُ ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ نعتًا للصِّراطِ، وكان معنى الصِّراط هو الطَّريق المستقيم[2]؛ أفادت الصِّفةُ التي جاءت تقييدًا للموصوف النِّكرة تقريرَ استقامة صراطِ اللّه تعالى من غيرِ اعوجاجٍ ولا ضَلالٍ، وملازمةَ الصِّراطِ لكمالِ الاستقامةِ، والإيذانَ بأنَّه لا يمكن العُدول عنه إلى غيرِه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ من ينحرفُ عنه يتسلَّط إبليس على إغوائه[3].

توجيه القراءات القرآنية في ﴿عَلَيَّ﴾:

صراطُ الله عَلِيٌّ رفيعُ القدرِ مستقيمٌ لا انحراف فيه

قَرَأ جمهورُ القرّاءِ ﴿عَلَيَّ﴾ بِفَتْحِ اللّامِ وَفَتْحِ الْيَاءِ، عَلَى أنَّها (عَلَى) اتَّصَلَتْ بِها ياءُ الْمُتَكَلِّم، وَقَرَأ يَعْقوبُ وحدَه ﴿عَلِيٌّ﴾، بكسرِ اللّامِ وضمِّ الياءِ والتَّنوينِ، عَلَى أَنَّهُ وَصفٌ مِنَ الْعُلُوِّ وُصِفَ بِهِ ﴿صِرَٰطٌ﴾، فيكون للصّراط وصفان: أحدهما: كونه عليًّا رفيعَ القدْرِ، والآخر: كونه مستقيمًا لا انحراف فيه ولا اعوجاج، وتقدَّم بيان معنى ﴿عَلَيَّ﴾ على القراءة المشهورة[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.
(2) الراغب، المفردات: (صرط).
(3) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 9/194، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/161.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/104، والأزهري، معاني القراءات: 2/69، وابن الجزري، النشر: 2/301.